القسم بالمخلوقات فى القرآن الكريم (١)

للأستاذ عثمان أبو النصر بك
عضو مجلس النواب
والأستاذ بدار العلوم سابقا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان. وبعد فقد قضت النهضة الحديثة أن يتجه الأدباء والعلماء إلى إحياء البحوث القرآنية التى تدور حول بلاغة القرآن وموضوعاته، غير أن القسم فيه لم يكن له الحظ الموفور من عنايتهم، على أنه من أشد موضوعاته حاجة إلى الإيضاح درءاً لتلك الشبهات التى تخطر ببال كثير من القراء والمستمعين.

ذلك أنا إذا استقصينا القسم فى القرآن وجدناه تعالى يقسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على أن الله واحد وتارة يقسم على أن الرسول حق وتارة يقسم على أن القرآن حق وتارة يقسم على البعث والجزاء وتارة يقسم على حال الإنسان

يقسم على أن الله واحد كقوله تعالى والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن الهكم لواحد وعلى أن الرسول حق كقوله تعالى: «يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وعلى أن القرآن حق كقوله تعالى: « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم وعلى الجزاء كقوله تعالى: «والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع: وعلى حال الانسان كقوله تعالى «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى

(١) محاضرة ألقيت بنادى دار العلوم فى ٥ من يوليو سنة ١٩٤٣.

وفى هذه الآيات وغيرها ترى المقسم به من مخلوقاته تعالى فى قسامه أولا وكونه يقسم بالمخلوقات ثانيا أثارا الشبهات الآتية :

(١) الجرى على عادة الحلف عندنا غير محمود شرعا وكذلك قال المسيح: ليكن قولكم نعم نعم أو لا لا ولا تحلفوا . فلماذا أكثر الله من الأيمان فى القرآن ؟

(٢) نهى النبى ﷺ عن الحلف بغير الله فقال: من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت . وقالوا إن الحلف بغير الله يقتضى تعظيمه والعظمة لله وحده ثم اختلفوا أهذا النهى للتحريم أم للكراهة وعلى كل فاجتنابه مطلوب شرعا فكيف حلف الله بمخلوقاته كالتين والزيتون ؟

(٣) القسم القرآنى كما قلنا قد وقع على أمور مهمة جدا هى أصول الايمان فما المقصود به ؟ إن كان المقصود تحقيق المحلوف عليه وإثباته فى ذهن المؤمن فالمؤمن مصدق لا يحتاج إلى يمين وإن كان المقصود به تحقيقه وإثباته فى ذهن الكافر فالكافر لا يصدق باليمين ولا يقنعه إلا الدليل الساطع والبرهان القاطع

تلك الشبهات تخطر كلها أو بعضها فى مجالس القرآن ببال القراء والسامعين فاذا سأل أحدهم كيف يقسم الله بمخلوقاته كان الجواب إن الله أراد تشريف تلك المخلوقات والتنويه بها وإعلاء شأنها والرد على من ذمها وهذا ظاهرا لصحة فى قوله تعالى لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون إذا قلنا إنه خطاب من الله جل شأنه لنبيه ﷺ فقد كان النبى واحدا من العرب ظهر فيهم وعليهم فلقى منهم إيذاء واستهزاء ولقى منهم عنادا وإصرارا وعتوا واستكبارا فمن المعقول ان يشرفه الله بأن يقسم بحياته اما انه يشرف الخيل العاديات ضبحا بالقسم بها فبعيد لأنها كانت واضحة الشرف عند العرب حتى روى انهم كانوا يولمون ويعملون ما يعمل فى الافراح ويهنىء بعضهم بعضا لغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج وأبعد منه أن يشرف بالقسم كلا من الشمس والقمر والنجوم وقد بلغت عندهم من الشرف غايته حتى عبدها بعضهم وفى تشريفه اياها بالقسم بها إغراء لهم بالتمادى فى عبادتها وهو يقول: لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. وأبعد من هذا وذاك ان يشرف بالقسم فى الجملة كلا من إبليس

وأمثال الخنازير والخنافس والصراصير فى اقسامه بكل المخلوقات من علوى وسفلى وإنس وجن وملائكة وحيوان ونبات وغيرها إذ قال جل شأنه فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وقال وشاهد ومشهود وما نبصره ونشهده الخنازير وأمثالها ومما لا نبصره إبليس وقد طرده الله فقال له اخرج منها مذءوما مدحورا وقال له أخرج منها فانك رجيم وإن عليك لعنتى أو اللعنة إلى يوم الدين .

كل هذا دعانى إلى الشك فى صحة هذا الخطاب والشك أول مراتب اليقين فأخذت أتدبر كتب أئمة المفسرين السابقين حتى وقفت للفخر الرازى والشيخ زاده والبيضاوى وابن القيم على ما ارتاحت له نفسى واطمأن له خاطرى

أساس تلك الشبهات

لعل أساسها ما تسرب إلى الأذهان من أن الغرض من القسم تقديس المقسم به أو تشريفه وتعظيمه وساق الناس إلى هذا أن معظم ما أقسم الله به من مخلوقاته شريف فى ذاته كالقرآن والشمس والقمر ولكنكم سترون وستحكمون أن القسم فى اللغة قد يكون بالخسيس فيؤدى غرضا مقصودا وسترون أن القسم بالمخلوقات فى القرآن نوع يباين القسم التقديسى وقد يباين التشريفى ولكنه يؤدى غرضاً جليلا قد لا يؤديه غيره .

ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب وعلى طريقتهم وأسلوبهم كان علينا أن نعرف الغرض الأصلى من القسم عندهم وأن نتبين أنواعه وأساليبه

الغرض الأصلى من القسم

كثيرا ما يحتاج المتكلم إلى تأكيد خبر يسوقه أو وعد يصدر منه وبخاصة فى فى الأمور المهمة كالمحالفات والمعاهدات . وكان للتوكيد عند العرب صيغ مختلفة وكان القسم أقواها توكيدا وتحقيقا للخبر فى ذهن السامع لأنه يفيد الجزم بصحته والقطع بصدقه وقد بلغ من شأن القسم عندهم أن كانوا يحترزون كل الاحتراز من الأيمان الكاذبة ويعتقدون أنها شؤم على صاحبها تخرب الديار وتدعها بلاقع لما فيها من الغدر والخيانه ومن أجل هذا كانت اليمين عندهم قاطعة فى إثبات الحقوق قال زهير .

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

فالغرض الأصلى من القسم توكيد المقسم عليه. أما تقديس المقسم به أو تشريفه فغير مقصود أصالة وان أتى تبعا والعرب لم يكونوا يلتزمون ذكر المقسم به قالت خرنق .

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق

ولا ذكر لفظ القسم أيضا بل يكتفون بلامه كقول لبيد

ولقد علمت لتأتين منيتى إن المنايا لا تطيش سهامها

وقد اختلف فى تقدير المقسم به فاذا قدرته أنت لفظ الجلالة وقلت تريد خرنق ألا أقسمت بالله لا آسى ويريد لبيد ولقد علمت والله لتأتين منيتى قال غيرك تريد خرنق ألا أقسمت بحياتى ويريد لبيد ولقد علمت وأبيك وقد كان هذا الاختلاف سببا فى اختلاف أئمة المسلمين فيما حذف منه المقسم به أهو يمين شرعية يعاقب الحانث فيها أم لا قال العسقلانى فى الجزء الحادى عشر ص٤٢٨: أن من قال أقسمت لأفعلن كذا لا يكون يمينا إلا عند الحنفية وقيل يكون يمينا إذا نوى الحالف الحلف بالله وكل هذا يفيد أن التقديس غير لازم فى كل قسم حذف فيه المقسم به إلا إذا نوى الحالف الحلف بالله — وسيأتى من الأمثلة ما يدل على أن الغرض من القسم قد يكون تحقير المقسم عليه لحقارة المقسم به وإذا يكون القسم أنواعا نوع يلزم فيه التقديس ونوع فيه تشريف وإعزاز للمقسم به ونوع ثالث هو المقصود بالبيان يكون القسم فيه بالدليل أو ما هو فى حكمه ولى أن أسميه القسم الاستدلالى .

القسم التقديسى

القسم التقديسى: إقسام الانسان بمعبوده فهو عندنا أن تقسم بالله أو بصفة من صفاته فتقول أقسم بالله أو بعزته أو بجلاله مثلا لأفعلن كذا وهو أقوى أنواع القسم توكيدا للمقسم عليه وهو القسم الشرعى الذى يعاقب الانسان على نقضه بعد توكيده وليس من مقصدى أن أتوسع فى الكلام عليه .

القسم الإكرامى والتشريفى

يحس الإنسان فى نفسه عزة ورفعة فيحمله هذا اذا أراد توكيد كلامه أن يقول

ورأسى أووحياتى أولعمرى لأفعلن كذا وقد يريد إعزاز المخاطب و إكرامه فيقول : ورأسك أو لعمرك، وإذا كان المخاطب ملكا قال وجلالك ،فكل هذه الأيمان تفيد التوكيد وتشعر بتعظيم المقسم به لا إلى حدالتقديس،وهى إذا أضيفت إلى المتكلم دلت على شعوره بشيء من العظمة ولذا يتورع عنها الصالحون وكذلك قال المسيح لاتحلف برأسك لأنك لاتستطيع أن تجعل شعرة بيضاء سوداء . وللفقهاء فى هذا كلام كثير ليس هذا موضعه .

القسم الإستدلالى

(١) رجوت صديقا لى أن يعيرنى كتاب سيبويه فأبى وما كنت أظنه يضن به على وبعد أيام نسى فيها ذلك أوتناساه طلب أن أعيره بعض كتبى فقلت له : وكتاب سيبويه ما أعيرك أى كتاب تطلبه منى . أقسمت له بكتاب سيبويه لا لتقديسه ولا لتشريفه ولكنى أردت أن أذكره بضنه على به بصورة تلفت النظر وتدل على ما فى نفسى من الأثر فضلا على مافيها من توكيد المحلوف عليه وتأنيب صاحبى على ما كان منه فلم أر خيرا من أن أقسم بالسبب الذى أدى إلى رفض الطلب .

(٢) وإذا سمعنا ولدا يقول لولى أمره : وشحك على وجوعى وعريى لآخذن كل ماتصل إليه يدى من مالك فليس فينا من يقول إن هذا الولد أراد بهذا القسم تقديس الشح والجوع والعرى أوأراد تشريفها وهى التى ضايقته وآلمته وإنما حلف بما يؤلمه أن يؤلم من يؤلمه بأن يأخذ كل ماتصل إليه يده من ماله كأنه قال سأولمك بأخذ مالك لأنك تؤلمنى بالشح والجوع والعرى أو كأنه قال : أنت السبب فى جوعى وعريى بشحك مع يسارك ومن كان كذلك يستحق أن آخذ كل ما تصل إليه يدى من ماله فانت تستحق أن آخذ كل ما تصل إليه يدى من مالك فقدم الدليل فى صورة القسم التى تفيد توكيد المحلوف عليه وتلفت المخاطب إليه فيتمكن فى ذهنه فضلا على أن هذا القسم ينم على أثر خاص فى نفس المتكلم ويشعر بشيء من الوعيد فى غير مبالاة .

(٣) وكذلك روى أن هجرسا حين هم أن يقتل خاله جساسا قاتل أبيه قال : وفرسى وأذنيه ورمحى ونصليه وسيفى وغراريه لايترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه ثم طعنه فقضى عليه .

لم يرد هجرس تقديس فرسه وأذنيه ورمحه ونصليه وسيفه وغراريه ولا تشريفها

وإن كانت عظيمة عنده عزيزة عليه ولكنه أراد أن يقول : لاعذر لى فى أن أترك قاتل أبى حيا أنظر إليه وأنا تام الأهبة قادر على الطعن والضرب والثأر أو أراد أن يقول : أنا تام العدة قادر على الثأر ومن كان كذلك لايسوغ له أن يترك قاتل أبيه حياوهو ينظر إليه فانا لايسوغ لى أن أترك قاتل أبى حيا وأنا أنظر إليه فوضع الدليل فى صورة القسم التى تفيد توكيد المحلوف عليه وتلفت السامع إليه دون أن تعطى الخصم فرصة الإنكار أو الفرار .

(٤) وكذلك قال عروة بن مرة الهذلى

وقال أبو أمامة يالبكر فقلت ومرخة دعوى كبير

أى وحق المرخة لقد دعوت يا أمامة مخيثا كبيرا حين قلت يالبكر وإنما قال كبيرا تهكما فهو يريد فقلت ومرخة دعوى صغير على حد قولك للأسود ياأبيض وللجبان يا أسد وقوله تعالى : ﴿ذق أنك أنت العزيز الكريم﴾ أى الذليل اللئيم والمرخة شجرة ضئيلة الظل لا تقى من استظل بها حر الشمس ولذا يقول العرب لمن لجأ إلى ضعيف لا يحميه : لقد استظل بمرخة : قال أبو جندب الهذلى :

وكنت إذا جار دعا لمضوفة أشمر حتى ينصف الساق مئزرى

فلاتحسبا جارى لدى ظل مرخة ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر

أى فلا تحسبا المستجير بى فى كنف رجل ضعيف كالمرخة لاتحمى المستظل بها .

أقسم عروة بالمرخة على ضعف المستغاث به وهو إقسام بالمشبه به على المشبه كأنه قال : أبو أمامة فى استغاثته ببكر كمن يستظل بمرخة

وفى القسم بالمشبه به توكيد للمحلوف عليه ولفت للسامع إليه وتقرير له فى ذهنه ولكن الغرض من هذا التشبيه تحقير المشبه والتشبيه كما تعلمون يأتى للتحقير كما يأتى للتعظيم والإيضاح ببيان الحال أو مقدارها أو ببيان الدليل وهو ما يسميه علماء البيان بيان الإمكان .

(٥) كذلك قال بعض الشعراء لعمر أبى الواشين إنى أحبها

وقال آخر . فان تك ليلى استودعتنى أمانة فلا وأبى أعدائها لا أذيعها

أقسم الأول بحياة أبى الواشين وأقسم الثانى بأبى الأعداء وكلاهما بغيض ثقيل على النفس وأنا أترك للعشاق والمحبين تقدير هذا القسم وإيضاح الغرض منه كما أترك لهم تأويل ذلك القسم الاستعطافى الذى وقع على جملة طلبية فى قول ابن الفارض .

بانكسارى بذلتى بخضوعى بافتقارى بفاقتى بغناك
لاتكلنى إلى قوى جلد خا ن فإنى أصبحت من ضعفاك

فقد أقسم بالانكسار وما بعده طلبا للرحمة واستدرارا للعطف .

من هذا ظهر أن التقديس والتشريف لايلازمان المقسم به وأن المقسم به قد يكون حقيرا أو بغيضا ثقيلا وأن القسم قد يكون للتذكير بالمقسم به والتنبيه إليه وقد يكون للاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه أو لتشبيه المقسم عليه بالمقسم به إيضاحا له أو بيانا لإمكانه ولكل هذا نظائر فى كتاب الله جل شأنه وإلى بعض هذا نبه الفخر الرازى والبيضاوى والشيخ زادة . قال الشيخ زادة نقلا عن الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى والذريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع إن الأيمان الواقعة فى القرآن وإن وردت فى صورة القسم إلا أن المقصود بها الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وهو هنا صدق الوعد والبعث والجزاء كأنه قيل : من قدر على هذه الأمور العجيبة المقسم بها يقدر على إعادة من أنشأه أولا كقولك لمن أنعم عليك وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك : استدل بالمقسم به وهو النعم على مواظبة الشكر اه .

ولعله أخذ هذا المثال من قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى : « قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين » أى بحق النعمة التى أنعمتها على وهى نعمة المغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين أو كما قال البيضاوى أى أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين اه فإن شئت جعلت ما موصولة وإن شئت جعلتها مصدرية وعلى كل ؟ فالباء للقسم كالباء فى قول إبليس فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض والآن نبدأ بشرح بعض الأمثلة القرآنية

(١) قال تعالى : يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين

أقسم جل شأنه بالقرآن الحكيم على أن محمدا ﷺ رسول من المرسلين ونحن نعلم أن القرآن معجزة من المعجزات التى ثبتت بها الرسالة بعد أن لم يستطع العرب أن يأتوا بحديث مثله ولا بعشر سور من مثله مفتريات ولا بسورة من مثله قل لئن

اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

فإقسام الله بالقرآن على صحة الرسالة إقسام بالمعجزة التى تؤيد تلك الرسالة والدليل الذى يثبتها كأنه قال إنك من المرسلين بدليل القرآن الحكيم فأخرج الدليل مخرج اليمين لأن المتكلم كما قال الرازى إذا بدأ كلامه باليمين يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى إليه تمام الإصغاء ويقبل على سماعه كل الاقبال . وفوق هذا أقول : إن فى القسم بالمعجزة تذكيرا بها وتبكيتا للمعاند على الاغضاء عنها ولا أدل على هذا التوجيه من أن الله جل شأنه عودنا فى كتابه العزيز تصريف الآيات والبراهين التى يسوقها دلائل على أصول الايمان فتارة يذكرها على سبيل الآية والعبرة وتارة يذكرها كأنها خبر من الأخبار وأحيانا يذكرها بأسلوب القسم وقد رأيتموه يقسم على الرساله بالقرآن الحكيم وسمعتم قوله تعالى : قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية :

وها هو ذا يقول فى سورة العنكبوت : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » أو لم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم — طلبوا أن ينزل الله عليه آية دالة على رسالته كناقة صالح وطوفان نوح ونار إبراهيم وعصا موسى عليهم السلام فقال جل شأنه أيطلبون هذا ولم يكفهم آية على رسالتك وبرهانا على صحتها إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم وغير خاف ما فى هذا الاستفهام من الإنكار والتوبيخ ولعل فيه إرشاداً إلى مافى القسم بتلك المعجزة من التذكير والتبكيت والقرآن يفسر بعضه بعضا فإذا جعله الله فى سورة العنكبوت آية على الرسالة كان حلفه به عليها فى سورة يس حلفاً بالدليل على صحتها .

(٢) وقال تعالى : والذاريات ذروا « فالحاملات وقرا « فالجاريات يسرا « فالمقسمات أمرا « إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع « والسماء ذات الحبك إنكم لفى قول مختلف .

أقسم جل شأنه بأمور أربعة على أن ما نوعد به من البعث وأمر الساعة حق وعلى أن الدين وهو الجزاء من ثواب وعقاب واقع لامحالة فهو قسم على البعث وعلى الجزاء .

أقسم بالذاريات وهى الرياح تذرو المطر وتذرو التراب وتذرو النبات إذا تهشم كما قال تعالى : فأصبح هشيما تذروه الرياح أى تفرقه وتنشره .

ثم أقسم بالسحاب الحاملات وقرا أى ثقلا من الماء وهى روايا الأرض التى يسوقها الله تعالى إلى حيث شاء حاملة أرزاق الإنسان والحيوان

ثم أقسم بالجاريات يسرا وهى النجوم التى فوق الغمام تجرى مسخرة مذللة منقادة أو هى السفن تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا .

ثم أقسم بالمقسمات أمرا وهم الملائكة التى تقسم بين الخلق أمر الله الذى أمرت به أو هى الرياح تقسم الأمطار بين الخلق .

وتلك الأمور الأربعة من الآيات الدالة على قدرته تعالى قال البيضاوى : كأنه استدل باقتداره تعالى عليها على اقتداره على البعث الموعود فكأنه قال : إن من قدر على خلق هذه الأمور العجيبة النافعة قادر على بعث الخلق ومجازاتهم على أعمالهم وقد تقدم كلام الشيخ زاده فى هذا الموضوع

وكذلك تقدم أن القرآن الكريم جرى على تصريف الآيات الدالة على قدرته تعالى وذكرها بأساليب مختلفة وقد أقسم هنا بالرياح والسحاب على البعث والجزاء وذكرهما فى سورة الروم على سبيل الآية والعبرة فقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) يريد أن ذلك الذى قدر على إرسال الرياح وإثارة السحب وإحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى .

وهذا وبعد أن أقسم على البعث والجزاء بتلك الأمور الأربعة أقسم بالسماء ذات الحبك على أنهم فى قول مختلف والحبك الطرائق ومعنى كونهم فى قول مختلف أن

كانوا يقولون فى الرسول تارة إنه ساحر وتارة إنه شاعر وتارة إنه كاهن وتارة إنه مجنون وهذه أوصاف متباينة متباعدة لا يمكن الجمع والتوفيق بينها ولذا قال البيضاوى: ولعل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتباعدها وتنافى أغراضها بطرائق السماء فى تباعدها واختلاف أغراضها .

(٣) وقال تعالى : والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

المقسم عليه فى هذه السوالة يتكون من أمور ثلاثة :

الأول : دليل من أدلة القدرة الإلهية على البعث والجزاء وهو قوله تعالى : لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم

والثانى : وعيد صارم شديد وهو قوله : ثم رددناه أسفل سافلين وأسفل سافلين النار على الصحيح أو هو سجين موضع الفجار كما أن عليين موضع الأبرار ورددناه معناه ونرده فعبر بالماضى موضع المضارع المستقبل إيذانا بأن الرد إلى أسفل سافلين واقع لا محالة وتشبيها للمستقبل المحقق وقوعه بالماضى الواقع فعلا وهذا كثير فى القرآن ومنه قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد) أى إذ يوقفون على النار فيقولون ، وقوله تعالى « ولو ترى إذ فزعوا أى إذ يفزعون ومنه المثال المشهور آتى أمر الله فلا تستعجلوه

والثالث : وعد حسن وهو قوله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون أى مقطوع والقسم فى هذه السورة على ما سترون أكثر انصبابا على الآخرين أى على الوعد والوعيد . قال أئمة المفسرين أراد بالتين والزيتون المكان الذى كثر شجرهما فيه على سبيل التجوز عبر بالحال وهو التين والزيتون وأراد المحل وهو الأرض المقدسة التى ظهر فيها عيسى عليه السلام وقالوا إن هذا المعنى هو الذى يتناسب مع طورسينين ومع البلد الأمين والتعبير بالحال عن المحل مألوف فى الكلام العربى قال تعالى : فأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون أى ففي جنته التي تحل فيها الرحمة وقال الشاعر :

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناجى ؟

أراد إذا تأخر فرسه الذى يحل السرج به .

على هذا يكون الله قد أقسم على خلق الانسان وتعذيبه وأثابته بأمكنة ثلاثة هى مظاهر أنبياء ورسله أصحاب الشرائع العظام المعروفة أقسم بأرض بيته المقدس مظهر رسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم وفيها نزل الانجيل عليه ثم أقسم بالجبل الذى كلم الله موسى عليه تكليما وناداه من جانب الطور الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التى فيه أن اذهب الى فرعون إنه طغى ثم أقسم بالبلد الأمين مظهر خاتم الأنبياء والمرسلين أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التى هى مهبط الوحى والرسالة على خلق الانسان فى أحسن تقويم وعلى تعذيبه فى أسفل سافلين إن كفر وفجر وعلى إثابته بأجر غير ممنون إن آمن واتقى وكأنه أقسم بمن ظهر فيها من الرسل والكتب وإنما أقسم بهذه الأمكنة التى هى مشرق نور الهداية على هذا الجزاء تذكيرا للانسان بما كان من أمر الرسالة وما كان من أمر الوحى وإشعاراً له بأن مايلاقيه من ثواب أو عقاب إنما هو نتيجة إيمانه أو كفره وطغيانه بعد أن أرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل قال تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وكأنه جل شأنه يقول : هأنذا قد أرسلت لك الرسل فأناروا الطريق وميزوا لك الرشد من الغى فإن عصيت فلك أسفل سافلين وإن أطعت فلك أجر غير ممنون يشبه هذا قولك لمن ربيتهم وحق ما أنفقته عليكم وأديته لكم من وسائل التهذيب والتثقيف لآخذن المسىء منكم باساءته والمحسن باحسانه يشهد لهذا كله قوله تعالى فى سورة آل عمران : « نزل عليكم الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » ففيها التذكير بالكتب السماوية وفيها الوعيد الصريح وفيها الوعد الضمنى وفيها الدليل على القدرة الآلهية ففيها كل ما تضمنته السورة التى معنا .

(٤) وقال تعالى : والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن

الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى .

قال المفسرون أراد بالنجم جنس النجوم أو أراد به الثريا على ما اشتهر عند العرب وهوى النجم غرب أو طلع يقال هوى هويا بفتح الهاء إذا سقط وغرب وهوى هويا بضمها إذا علا وصعد والضلال ضد الهوى والغى ضد الرشاد يقول إن صاحبكم لعلى الهدى والرشاد وإنما قال ماضل صاحبكم ولم يقل ماضل محمد تأكيدا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لايعرفونه بكذب ولاغى ولاضلال .

(١) أقسم جل شأنه بالنجم إذا سقط وغرب على أن ماجاء به محمد ﷺ كلام الله لاغى فيه ولا ضلال فهو قسم على صحة القرآن .

(٢) أقسم جل شأنه بالنجم والنجوم آية من آياته الدالة على قدرته وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل فالنجم هداية فى الظلمات الحسية وآيات القرآن هداية فى الظلمات المعنوية والنجوم آياته المعنوية المرئية والقرآن آياته المتلوة فالشبه بينهما واضح والمناسبة قوية وكأنه تعالى يقول من قدر على خلق النجوم يزين بها السماء ويهدى بها فى ظلمات الليل براً وبحراً قادر بلا شك على إنزال القرآن يخرجنا به من ظلمات الغى والجهل إلى نور العلم والإيمان .

وأكثر مايكون الاهتداء بالنجوم عند غروبها أو شروقها ولذا قال تعالى والنجم إذا هوى ونظيره قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم .

(٥) وقال تعالى « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى »

يقول والليل إذا وارى الشمس وحجب ضوءها والنهار إذا تبين وظهر بطلوعها وخلق الذكر والأنثى إن عملكم الذى تهتمون به ابتغاء ثمراته لعظيم الاختلاف فى جنسه وعاقبته فمنه الحق ومنه الباطل أو منه الإيمان ومنه الكفر أو منه الخير ومنه

الشر فمنه ما يثاب عليه كالإعطاء والاتقاء والتصديق بالحسنى ومنه مالايجدى صاحبه نفعا بل يعاقب عليه كالبخل والكنود والتكذيب بالحسنى .

والليل والنهار يختلفان ظلمة ونورا والذكر والأنثى يختلفان استعدادا وعملا وشكلا والليل والنهار من آثار الاجرام العلوية والذكر والأنثى من الاجرام الأرضية والعلويات والأرضيات مختلفان فأقسم جل شأنه بها على اختلاف سعى الإنسان وعمله كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى أقسم على هذا وعلى أن ذلك السعى منه ما يثاب عليه ومنه ما يعاقب عليه وقد فرق جل شأنه بين العاقبتين فقال فأما من أعطى واتقى الآيتين فأوما بهذا إلى البعث وما وراءه من حساب وثواب وعقاب وبعبارة أخرى أقسم بالمشبه به على المشبه وهذا تشبيه استدلالى يراه علماء البيان لبيان الإمكان كأنه قال أن الذى خالف بين الليل والنهار وبين الذكر والأنثى يخالف فى الجزاء بين المحسن والمسىء والمؤمن والكافر كما خالف بين الليل والنهار والذكر والأنثى .

(٦) وقال تعالى : والضحا والليل إذا سجى ۞ ماودعك ربك وما قلى ۞ وللآخرة خير لك من الأولى ۞ ولسوف يعطيك ربك فترضى

قيل أراد بالضحى النهار أو ضوءه بدليل مقابلته بالليل إذا سجى أى ركد ظلامه أو سكن أهله وانقطعوا عن الحركة فيه ومعنى ماودعك ربك وما قلى ما تركك ربك وما أبغضك وللآخرة خير لك من الأولى لأن الآخرة خالصة من الشوائب والأولى مشوبة بالأذى والمكاره ولسوف يعطيك ربك من توارد الوحى ورفعة الشأن وظهور الدين وكثرة الأتباع وغيرها فترضى بما يغمرك به من النعم التى ليس وراءها مطلب لطالب .

نفى الله جل شأنه أن يكون قد ترك النبى أو قلاه وبشره بأن أخراه خير من أولاه ووعده أن يعطيه من جليل نعمه فيرضى بما أولاه وهذا إعلان من الله لنبيه أنه لا يزال يواصله بالوحى والكرامة فى الدنيا وأنه سيمنحه ما هو أجل وأعظم فى الآخرة وقد أقسم على هذا بالضحا والليل إذا سجى فهو قسم على صحة النبوة وعلى المعاد بآيتين واضحتين من الآيات الدالة على أن الذي خلقهما قادر على أن يرسل

نبيه إلى خلقه ويواصله بالوحى هداية لهم ورحمة بهم وعلى أن يجازيه فى الآخرة بما هو خير له من الأولى . وتانك الآيتان هما الليل والنهار وهما مختلفتان نورا وظلمة وبينهما وبين المقسم عليه مطابقة عظيمة فالمقسم به نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل والمقسم عليه نور الوحى الذى وافى بعد طول احتباسه واحتجابه عنه حتى قال أعداؤه ودع محمدا ربه . ونور الضحا يهتدى به الناس فى معايشهم بعد تخبطهم ليلا فى دياجير الظلام ونور الوحى يهتدى به الناس فى ظلمات الجهل ونور الضحا وظلام الليل حسيان ونور الوحى وظلام الجهل عقليان والذى محا ظلمة الليل بنور الضحا يمكنه طبعا أن يمحو ظلام الجهل والغى بنور الوحى والذى اقتضت حكمته ألا يترك عباده سرمدا فى ظلمات الليل بل هداهم إلى مصالحهم بضوء النهار قادر طبعا أن ينقذهم من ظلمات الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة فالشبه بين المقسم به والمقسم عليه واضح والمناسبة قوية

(٧) وقال تعالى : والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير .

الضبح : أصوات أنفاس الخيل اذا عدون أى جرين أراد والله أعلم والخيل العاديا تضبح ضبحا .

والإيراء : اخراج النار بالزناد ونحوه والقدح الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر .

والمغيرات صبحا : هى التى تغير على العدو فى الصباح لقتل وأسر واستلاب مال فأثرن به نقعا . يريد أثرن فى الصبح غبارا

فوسطن به جمعا : أى توسطن فى الصبح جمع الأعداء ففرقنه وشتتنه

ان الانسان لربه لكنود : أى كفور ينعم ربه وأراد بالانسان جنسه لا كل فرد من أفراده

وإنه على ذلك لشهيد : يريد ولسان حال الانسان شاهد على كنوده

وإنه لحب الخير لشديد : الخير المال قال تعالى : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية الآية أى ترك مالا وشديد معناه بخيل يقول أنه شديد البخل لأنه يحب المال

المقسم عليه هنا حال الانسان وهى كونه كنودا بشهادته على نفسه وكونه شحيحا لأن حبه المال يمنعه من العطاء .

وقد أقسم الله على هذا بالخيل العادية الموريه المغيرة المثيرة للنقع المخترقة للجمع الظافرة بنفوس الأعداء وأموالهم والخيل من أكرم البهيم وأشرفه وأنفعه وهى مظهر العز والثراء بها الصيد والظفر فهى مال ومجلبة للمال تعدو طالبة للعدو هاربة منه فتثير الغبار وتورى حوافرها النار من الأحجار حتى تتوسط جمع الأعداء فتعود غانمة ظافرة فهى نعمة من نعم الله وآية من آياته الدالة على ربوبيته وعظيم قدرته وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار .

غير أن الخيل لا تفعل هذا مستقلة بنفسها بل لا بد لها من فرسان أمجاد وشجعان أنجاد ذوى عقل وقوة والإقسام بها إقسام بالمال والصحة والعقل فمن الفجر أن يقابلها الانسان بالكفر والشح والهلع ومن الايمان أن يقابلها بالشكر والتوبة والطاعة والاحسان الى الناس وبأن ينفعهم بماله ولسانه ويده وضميره

فإقسامه جل شأنه بتلك النعم والآيات على كنود الانسان وشحه فيه تنبيه الى تلك النعم وتذكير بها وتوكيد للمقسم عليه وايذان بشدة سخطه تعالى وغضبه على ذلك النوع من الانسان مع بالغ ذمه اياه وقتل الانسان ما أكفره ، ومثل هذا من كلام الناس أن تقول لمن أساء اليك بعد احسانك اليه وحق معونتى اياك واخلاصى لك إنك لغادر .

فكأن الله أراد أن يقول منحتكم تلك النعمة التى تستوجب كل الشكر والاحسان فأبى الانسان الا الكنود والبخل والطغيان .

ويمكن أن يقال أقسم الله بالسبب على المسبب فان النعمة كثيرا ما تطغى الانسان

وتبغيه وقد ذكر الله ذلك على سبيل الخبر فقال : كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى إن الى ربك الرجعى وقال تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » وقال : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ولكن الربط بين السبب والمسبب هنا غير لازم فمن الناس من ملأ الله قلوبهم بالايمان فقابلوا النعمة بالشكر والطاعة والاحسان فاستحقوا من الله أجراً غير ممنون .

هذا وقد ولى المقسم به فى هذه السورة تهديد ووعيد يتضمنهما قوله تعالى : « أفلا يعلم اذا بعثر مافى القبور وحصل ما فى الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير » وهو كالوعيد والتهديد اللذين يتضمنها قوله تعالى : « إن الى ربك الرجعى » بعد قوله « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى والقسم بالخيل على الكنود لايبعد فى معناه عن قوله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار) فى كلتا الآيتين تذكير بالنعمة يتلوه تصريح بكنود الانسان وعلمه الا أن الأول أتى على صورة القسم والآخر أتى على صورة الخبر .

ومما يستلفت النظر أن التوكيد بالقسم الاستدلالى انما كثر فى المكيات لا فى المدنيات من السور والآيات .

ولست أستطيع استقصاء أقسام القرآن فى هذه المحاضرة ولكنى أقول إن الله أقسم بالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحر والعصر والسحاب والنفس والملائكة وغيرها من المخلوقات وكلها آيات دالة على قدرته ووحدته وكماله وقد ذكرها فى مواضع مختلفة من كتابه بغير أسلوب القسم .

الخلاصة

(١) المقسم به فى القرآن دليل على المقسم عليه أوفى حكم الدليل صيغ فى صورة القسم وقد عمم الله فأقسم بجميع المخلوقات شاهدها ومشهودها ما نبصره ومالانبصره .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

(٢) التقديس والتشريف غير لازمين للمقسم به .

(٣) صوغ الدليل أو النظير أو ما فى حكمهما فى صورة القسم فيه توكيد للمقسم عليه وتنبيه للسامع اليه وتمهيد له بما يقرره فى الذهن .

(٤) فى ايراد الدليل بصورة القسم ايجاز فى ايضاح أو ايضاح فى ايجاز

هذا وتفضلوا بقبول احترامى

عثمان أبو النصر

عضو مجلس النواب

والأستاذ بدار العلوم سابقا